الجانب الانشائي من الثورة الجزائرية

بقلم عبد الحميد المهري

قد يتساءل القاريء ، اذ يقع نظره على هذا العنوان : « كيف يكون للثورة ، وهي في الاساس عملية هدم ، جانب انشائي ؟ » الم يكن الاصح هو ان نقول «المرحلة الانشائية» للثورة الجزائرية باعتبار ان عملية البناء لا تبدأ الا بعد اتمام عملية الهدم ؟ والجواب هو ان الثورة الواعية هي عملية هدم وبناء في وقت واحد . والثورة التي لا تستطيع البناء في مراحلها الاولى ، لا تستطيع البناء في مراحلها الاخيرة ، والثورة التي لا تستطيع الجمع بين عملية الهدم والبناء تكون ثورة مرتجلة وثمرة غير ناضجة ، وبالتالي تكون ثورة محدودة الابعاد ، قصيرة المدى .

واذن فموضوع المقال ليس هو ما تنوي الثورة الجزائرية بناءه في المستقبل وبعد انتهاء المعركة ، ولكن هو ما تبنيه الثورة الجزائرية الان وفي صميم المعركة . ان الثورة الجزائرية ترمي لتحطيم النظام الاستعماري الفرنسي وبناء نظام جديد بدلا منه ، ولكنها لا تنتظر انهيار النظام الاستعماري نهائيا لتبدأ في بناء النظام الجديد ، بل انها شرعت في البناء من الآن . ولكي نتصور اهمية الجانب الانشائي للثورة الجزائرية تصورا كاملا ، يجب ان نرسم خطوطا عريضة للنظام الاستعماري الذي كان قائما في البلاد حتى قيام الثورة ، ولا اريد ان اذكر ارقاما واحصاءات لتصوير وطأة هذا النظام ، فالارقام مملة ولا تعطي صورة حية عن الموضوع، بل اريد ان نتخيل اي بلد عربي (لنتخيل العراق او مصر او سورية مثلا) جميع وزرائه فرنسيون ، وجميع موظفيه الكبار والصغار فرنسيون ، وجميع اداراته الكبيرة والصغيرة فرنسية ، والجيش والدرك والشرطة فيه فرنسية . البنوك فيه فرنسية ، والشركات والصناعات والمرافق الهامة كلها فرنسية ، والتجارة الخارجية كلها بيد الفرنسيين ، والتجارة الداخلية الكبرى ايضا بيد الفرنسيين ، ونصف الاراضي الصالحة للزراعة بيد الفرنسيين ، والقوانين يصدرها فرنسيون وتطبقها محاكم فرنسية ، ولنتصور جميع المدارس في هذا البلد لاتعلم الا الفرنسية ، والصحف والكتب والمجلات التي تصدر فيه او تصل اليه فرنسية ، وحتى رجال الدين الاسلامي يعينهم الفرنسيون ، اذا رضوا عنهم ، ويقيلونهم اذا لم يكونوا موضع الرضى !...

ولنا نتصور ما كابده الشعب الجزائري من آلام وتضحيات للحيلولة دون قيام هذا النظام ، ولنا ان نتصور ما يجب ان يقدمه الشعب الجزائري من تضحيات في ثورته الحالية لتحطيم هذا الجهاز الجهنمي الضخم .

لقد اقتضى وضع هذا الجهاز الاستعماري الضخم تحطيم كل تنظيم جزائري سابق له في جميع ميادين الحياة . ولكن هذا النظام الاستعماري الدخيل لم يستطع ان يقوم مقام الانظمة السابقة في سياسة الهيئة الاجتماعية وتهيئتها للتطور والرقي والحضارة ، لانه كان غريبا عن طينة البلد ، بعيدا عن روح الشعب . كان هذا النظام سيئا في آثاره الظاهرة الملموسة ، وكان ايضا سيئا في آثاره الخفية العميقة ، واعظم سيئات هذا النظام انه لم يستطع ان يملأ الفراغ الذي احدثه بتحطيمه للانظمة القومية السابقة . لقد كان الشعب راضخا لهذا النظام ، ولكنه لم يكن منسجما معه . كان الشعب يعيش في الواقع بدون نظام ، كان يعيش في حيرة وفوضى تحول دون تفتق عبقريته الخلاقة .

واقتضت طبيعة هذا النظام الاستغلالية ايضا ان القوة المسلحة هي حافظة لكيانه وحاميته من الشعب الذي يريد ان يتخلص منه ، فكانت الثورات العديدة التي قام بها الشعب تنتهي الى الفشل ، وكان النظام الاستعماري يغرقها دائما في بحر من الدماء ويخرج سالما من المحنة ، بسبب انه يملك من السلاح ما لا يملك الشعب الاعزل . وهنا نشأ عند الشعب خاصة بعد ثورة ١٨٧١ ما يمكن ان نسميه « بمركب السلاح » : لقد كانت كل محاولاته للتخلص من هذا النظام الجائر تنتهي الى الفشل لانه اعزل ولان عدوه مسلح ، واذن فمفتاح القضية اصبح محصورا في شيء عزيز بعيد المنال ، اصبح محصورا في السلاح الذي يحتكره المستعمر ، ولهذا كان الشعب طوال فترة الكفاح السياسي ونشأة الحركات الوطنية بعد الحرب العالمية الثانية يقابل بنوع من الاستخفاف هذه الحركات ولا ينصاع لها الا اذا لمس فيها اتجاها الى الثورة او ما يعتقد انه ثورة .

ويعود الفضل في نجاح الثورة الحاضرة الى انها عرفت منذ البدء كيف تعالج هذه الآثار العميقة التي تركها النظام

« لم يعد استقلال الجزائر حلما بعيدا ، بل هو غاية تدنو بسرعة لتصبح حقيقة واقعة . وان جبهة التحرير تتقدم بخطى واسعة لتهيمن على الحالة في الميدان العسكري والسياسي والدبلوماسي. ان الجزائر تحضر اليوم الثورة العامة التي ستحطم النظام الاستعماري الفرنسي الى غير رجعة . »

الاستعماري فى نفسية الشعب . فقد سبق اندلاع الثورة عمل تنظيمي استمر سنوات عديدة ، وتغلغل فى جميع اوساط الشعب فى المدن والقرى ، اخرج الشعب من الحيرة والفوضى التي كان يتخبط فيها ، ورباه من جديد على التقيد بالنظام والانصياع وراء قادة خرجوا من صفوفه وجابهوا الاستعمار بمقاومة لا تعرف الهوادة . كما تغلبت طلائع الثورة الاولى على « مكب السلاح » الذي كان يعانيه الشعب ، فاثبتت به بصفة عملية ملموسة ان السلاح يمكن ان ينتزع من يد العدو انتزاعا ، وان السلاح يمكن ان يأتي بالسلاح ، وان الثورة يمكن ان تغذى نفسها بنفسها ، فعادت الى الشعب الثقة بنفسه وانفجرت طاقته الكامنة وتفتحت عبقريته واندفع مثل السيل الجارف الذي لا يغلب .

وهنا نصل الى نقطة البدء فيما سميناه بالجانب الايجابي للثورة الجزائرية ، فقد كان من العبث توجيه الشعب الى العمل الانشائي قبل ان يسترجع الثقة بنفسه وقبل ان تنفجر طاقته الكامنة الهائلة . ولكن ما العمل الآن وقد اصبح الشعب متدفقا كالسيل الجارف فى ثورته ضد النظام الاستعماري ؟

لقد درس المؤتمر الذي انعقد فى ٢٠ آب ١٩٥٦ فى «وادي السمام » وضم قادة الجيش والمندوبين السياسيين للثورة هذه القضية فيما درس من شؤون وقضايا ، واتخذ فى موضوعها القرار الاتي : « يجب ان تكون جبهة التحرير الوطني قادرة على تصريف الامواج الجبارة التي تهز الحماس الوطني ، ويجب ان لا تضيع الغضبة الشعبية الهائلة كما تضيع قوة السيل الجارف فى الرمال . ولتحويل هذه القوة الهائلة الى طاقة انشائية منتجة يجب الشروع فى عمل ضخم ينتظم ملايين الرجال . يجب ان تكون جبهة التحرير الوطني حاضرة فى كل مكان . ويجب ان تنظم فى اشكال عديدة كثيرا ما تكون مركبة ومعقدة جميع فروع النشاط البشري » .

كيف طبق هذا القرار فى الواقع ؟ وماذا كان تأثيره على سير الكفاح المسلح ؟

لنستمع اولا الى الفقرة من التعليمات التي ارسلها روبير لاكوست الى السلطة العسكرية والمدنية فى الجزائر « ان جبهة التحرير الوطني تبذل جهودا جبارة لتكوين ادارة سياسية وعسكرية فى جميع التراب الجزائري وتقصد بذلك انشاء اطار من الجزائريين يراقبون السكان بصفة دقيقة ... ان هذا الاطار السياسي والعسكري سيكون له نفوذ كبير لدى الجماهير التي اصبحت تطبق تعليمات الوطنيين . »

وفعلا ، فان « جبهة التحرير الوطني » وضعت فى مقدمة المهام الانشائية تكوين ادارة جزائرية وطنية تشرف على ادارة المناطق المحررة ، وتمتد حتى الى المدن الكبرى والمناطق التي لا زالت تحت الاحتلال الفرنسي . والوحدة الادارية الاساسية فى هذا التنظيم الاداري هي « مجلس الشعب » ويتركب من خمسة اعضاء ينتخبون كلهم من طرف الشعب انتخابا مباشرا ، ويتولى مجلس الشعب الاشراف على الشؤون الآنية والاحوال المدنية والشؤون المالية كالضرائب والاكتتابات والتعليم والتموين والامن العام وعلى عاتق المجالس الشعبية تقع مسؤولية ادارة المناطق المحررة من الاستعمار ومسؤولية قيادة الجماهير وتنظيمها فى المناطق التي لا زالت محتلة . وقد بدأت مجالس الشعب عملها باعلان التعليم العربي اجباريا للبنين والبنات وفتح المدارس فى جميع الجهات التي يسيطر عليها جيش التحرير الوطني وفرضت الضرائب ونظمت جبايتها فى كل التراب الوطني وقامت بمجهود جبار لتنظيم تموين جيش التحرير الوطني وتموين المناطق المحاصرة من طرف القوات الاستعمارية .

وقد روعي فى انشاء الوحدة الادارية ، وهي مجلس الشعب ، ان تكون فى تركيبها وطبيعتها قريبة من مجالس الجماعة التي عرفتها الجزائر منذ عصور قديمة «والجماعة» فى القرى والبوادي الجزائرية هي كناية عن فضلاء القرية او البادية الذين يسهرون على مصالح الجهة .

وهنا احب ان اتعرض الى قضية طالما سئلت عنها وهي: هل تنوي جبهة التحرير الوطني تشكيل حكومة جزائرية تواصل معركة التحرير ؟ والجواب هو ان جبهة التحرير الوطني لا تعلق اهمية كبيرة على الناحية الشكلية لهذه القضية . وانما تهتم بجوهرها ، اي انها تهتم بوضع الجهاز الاداري والعسكري الذي يحل بالفعل محل السلطة الاستعمارية الفرنسية ، ومتى تم وضع هذا الجهاز كان من السهل ـ اذا لزم الامر ـ اعلان حكومة جزائرية .

وهكذا نرى ان جبهة التحرير فى هذه القضية تريد ان تبتديء من حيث ينتهي البعض !

ومن النواحي الانشائية الهامة فى الثورة الجزائرية قضية الاصلاح الزراعي ، فقد عمدت الثورة الجزائرية فى المناطق المحررة الى استغلال الاراضي الزراعية على اساس توزيع

فى المكتبات :

الطبعة الثانية من

مرحبا ايها الحزن

تأليف :

فرنسواز ساغان

من كتب المؤسسة الاهلية للطباعة والنشر

عادل بين الفلاحين . وقد قرر مؤتمر ٢٠ آب ١٩٥٦ انه « يجب ان تندفع جبهة التحرير الوطني فى هذه السياسة الاجتماعية العادلة المشروعة لانها تذكي الحقد الشديد على الاستعمار الفرنسي وادارته وجيشه وشرطته وتوفر قوات احتياطية لا تنفذ لجيش التحرير والمقاومة وتخلق الظروف الصالحة لتوطيد المناطق المحررة وتنظيم مناطق جديدة اخرى على منوالها . »

وتستوحي جبهة التحرير الوطني فى السياسة التي خطتها لتوزيع الاراضي طريقة خاصة نابعة من صميم الشعب ، فقد كانت الجزائر قبل قدوم الجيوش الفرنسية تجهل نظام الملكية الفردية فيما يتعلق باراضي الزراعة ، اذ كانت الارض ملكا للعروش ، والعرش عبارة عن عدة قبائل تملك الارض فتزرعها وتقسم الغلة بين جميع افرادها .

وقد اصيب المستعمرون بالهلع الشديد عندما بدأت جبهة التحرير تطبق هذه السياسة فى المناطق المحررة ، وقامت الحكومة الفرنسية بدراسات كثيرة لهذه القضية وقدمت مشاريع عديدة لتوزيع الاراضي على الفلاحين الجزائريين ، ولكن هذه المشاريع باءت كلها بفشل ذريع لانه لم يوجد من الجزائريين من يعير هذه القضية اهتماما بالمرة .

هذان هما المظهران الكبيران للجانب الانشائي فى الثورة الجزائرية ، بناء الادارة الجزائرية التي هي اساس الدولة الجزائرية ، وتحقيق العدالة الاجتماعية بالنسبة للطبقة الكبرى الغالبة فى الجزائر وهي طبقة الفلاحين .

وغير هذا توجد ميادين اخرى يبرز فيها العمل الانشائي الضخم الذي قامت به الثورة الجزائرية ، فقد وجهت كل قسم من السكان لمهمة خاصة ونظمته تنظيما يتفق مع طبيعة عمله ، وأنا أذكر هنا باختصار بعض المنظمات الشعبية التي تساند جبهة التحرير فى عملها الانشائي الضخم وبيان المهمة التي كلفت بها حسب مقررات مؤتمر ٢٠ آب ١٩٥٦ .

١ ــ الاتحاد العام للعمال الجزائريين : وهو يشرف على كفاح الاستعمار فى النواحي الاقتصادية ، وينظم حركات الاضراب وتخريب الاقتصاد الاستعماري .

٢ ــ الاتحاد العام للتجار الجزائريين : ومهمته مكافحة الضرائب التي تفرضها السلطة الاستعمارية ومقاطعة التجار المستعمرين .

٣ ــ الحركة النسائية : ومهمتها اذكاء روح الحماس فى صفوف الجيش واعمال الاتصال والمخابرات وتهيئة الملاجيء واسعاف عائلات الشهداء والمعتقلين .

٤ ــ المثقفون : ويشرفون على تنظيم الدعاية العامة ، ويصدر قسم الدعاية الآن عدة جرائد وله محطة اذاعة تذيع ثلاث مرات كل مساء بلاغات جيش التحرير وتوجيهات القيادة العليا للثوار والتعليق على الانباء .

يضاف الى هذا بعض المدارس التابعة لجيش التحرير الوطني والتي تعنى بتخريج الاخصائيين من بعض النواحي الفنية .

وهناك عمل جبار قامت به الثورة الجزائرية وهو انشاء جيش منظم يقاوم منذ سنتين ونصف ٦٠٠ الف جندي فرنسي . ولكني لا اقطع بالحكم على هذا العمل بانه انشائي بل اترك للقراء الحكم فى الموضوع .

*

والآن وقد استعرضت استعراضا مجملا الجانب الانشائي للثورة الجزائرية ، يحق لنا ان نتساءل : ما هو الهدف الذي ترمي اليه الثورة الجزائرية من وراء كل هذه التنظيمات ؟ والجواب نجده فى مقررات مؤتمر ٢٠ آب ١٩٥٦ : « يجب العمل بدقة واتقان على تحويل الجزائر الى معسكر محصن منيع ، ولهذا فان الشعار الصحيح هو : دائما كل شيء لجبهة حقيقة واقعة . وان جبهة الكفاح المسلح . ان استقلال الجزائر لم يعد حلما بعيدا بل هو غاية تدنو بسرعة لتصبح حقيقة واقعة . وان جبهة التحرير تتقدم بخطى واسعة لتهيمن على الحالة فى الميدان العسكري والسياسي والدبلوماسي . ولهذا يجب العناية من الآن بتحضير **الثورة العامة** التي لا يمكن بدونها تحرير وطني سليم .

ان الجزائر تحضر اليوم الثورة العامة التي ستحطم النظام الاستعماري الفرنسي الى غير رجعة .

عبد الحميد مهري

مندوب جبهة التحرير الجزائري **دمشق**

الثمن ٢٥٠ ق.ل.س.